

موقف العلماء والتجار من الإصلاحات بمغرب القرن 19

د. منيرروي*

roguimounir@gmail.com

تقديم: لقد كان لتقارير كتاب السفاريات المغربية التي توجه عادة للسلطين وأفراد النخبة المخزنية السائدة، تأثيرا مباشرا في بلورة نظرة جديدة إلى الذات وإلى المصير، وتأثيرا على التطور الداخلي للمجتمع المغربي. والدليل على ذلك أن هذه الكتابات ساهمت في تقريب صورة الحداثة الأوربية وتفوقها الهائل إلى أذهان السلطين المغاربة بما جعلهم يقدرون البون الشاسع بين "تقدمهم" و"تأخرنا"، إذ أن الاعتراف بتقدمهم يعني الاعتراف بتأخرنا، وكل تفكير فيهم هو تفكير في هويتنا وأوضاعنا وأحوالنا.

ولا شك أن كتب السفاريات كانت ذات تأثير في انفتاح المغرب على أوروبا عبر اقتباسه للنظم الأوربية الحديثة في المجال العسكري والتكنولوجي والاقتصادي والتعلم في مدارس أوروبا وكلياتها ومعاهدها. وهو ما كان في الاعتبار عند إرسال البعثات الطلابية إلى أوروبا.¹

ضمن ذلك، أصبح الموقف من أوروبا ومن حداثتها إشكالية تغذي الصراعات داخل النخبة المخزنية التي انقسمت إلى مؤيد للانفتاح على النظم الأوربية الحديثة كأساس لتحديث المجتمع المغربي، أو على الأقل كأساس لتحديث الدولة المخزنية، وإلى معارض لذلك الانفتاح الذي لا يرى فيه إلا خطرا على استقلال المغرب ووحدته الترابية. فأين تتجلى إذن، مواقف التجار الكبار والعلماء من هذه التحديثات؟ وكيف شكلت مواقفهما وجهها للصراع بين النخب المخزنية بمغرب النصف الثاني من القرن 19؟

1. مواقف العلماء والتجار من الإصلاحات²

1.1. الجناح المتفائل: منذ أن احتلت فرنسا الجزائر، والمغرب يتعرض من حين لآخر لهجومات عسكرية، نذكر منها معركة إيسلي، قصف طنجة والصويرة من طرف فرنسا، حرب تطوان ضد إسبانيا، ومناوشات مليلية أيضا ضد إسبانيا سنة 1893 م. وهي الأحداث التي جعلت المخزن يدرك الأخطار المحيطة بالبلاد، ما حدا به إلى اتخاذ عدة إجراءات لتكوين جيش عصري قادر على مواجهة الأعداء، كما اتخذ عدة تدابير إصلاحية في الميادين السياسية والاقتصادية.

ولما كان الإصلاح، يتطلب دائما مصاريف باهظة، تدفع بالحكومة المركزية إلى فرض مزيد من الضرائب الجديدة-وهو الاجراء الذي لا ترتاح له الرعية مهما كانت الظروف والأحوال-طلب المخزن من الشعب أن يؤدي المعونة، واستشار العلماء الذين لم يستطيعوا الجهر بالمعارضة، لاعتبار أن الأسباب التي دعت إلى فرض ضرائب جديدة كانت واضحة ولا سبيل إلى تفنيدها، غير أن الاعتراض منهم على المخزن تم في مجالات أخرى.³

من مجالات اعتراض العلماء ما يتعلق بأمر التجارة. فقد كان القناصل الأوربيون يبلغون المخزن بأن التجارة عنوان التمدن وسبيل الرخاء، فيقدر ما يكثر عدد التجار الأجانب والمخالفين لهم من المغاربة، بقدر ما تنمو الثروة العامة وترتفع مداخيل الجباية، مما يمكن المخزن من تحقيق برامجه الإصلاحية. واعتبر القناصل الأوربيون أن أحسن الطرق لتشجيع التجارة، هي إقامة محاكم مزدوجة يسيروها العمال والقناصل وتفصل في النزاعات الحاصلة بين التجار الأجانب والمغاربة، مسلمين كانوا أم يهود.

ولما كان العلماء هم أهل الحل والعقد، والجهة المخولة بالإفتاء في جميع الأمور بما في ذلك الاقتصادية منها، فقد عارض هؤلاء الامتيازات الجديدة التي أصبح يتمتع بها التجار، وكذا استشارتهم في أمور كانت إلى حد قريب من اختصاص العلماء.⁴ بل إن الفقيه العراقي مولاي أحمد شن عليهم حملة شعواء حين قال في جوابه عن استشارة السلطان للتجار حول جمع مال غرامة

حرب تطوان، بأن التجار "جبلوا على الجبن، وقد استولى حب الدنيا على قلوبهم واشتاقوا إلى معاشررة الروم... ودواوين الفقه مملوءة بعدم قبول شهادتهم".⁵

ووجه اعتراض العلماء على امتيازات التجار واستشارتهم في أمور التجارة، أن كان موقف التجار من الإصلاح يعكس سعيهم الحثيث لخدمة مصالحهم، وبالتالي شجعوا مشروع الإصلاح، وساهموا في جلب بعض مستلزماته من المواد الأوربية، وقاموا بدور الوسيط بين المخزن والدور التجارية الأوربية (شراء الأسلحة-لباس الجيش-استخدام الآلات). ومن جهة ثانية فقد كان التجار من المتحمسين لإدخال إصلاحات لها علاقة بنشاطهم التجاري، خصوصا إنشاء الطرق العصرية، وإدخال وسائل النقل الحديثة كالسكك وغيرها، قصد تسهيل العمليات التجارية وتسريع إنجازها.⁶

ومن نماذج ذلك، التاجر محمد التازي الذي أدلى برأيه في عدد مهم من المسائل الاقتصادية الهامة، حيث يستشف من بعض رسائله، اهتمامه بمسألة ضرب العملة الحسنية الجديدة. لذلك نراه يتتبع الموضوع مع المسؤولين على إنجازها ويتحدث عن الفوائد التي سيجنيها المغرب جراء ذلك.⁷

في هذا الإطار، يشير عمر أفا إلى أن فكرة الإصلاح النقدي كانت سائدة لدى المخزن منذ القرن 18، غير أن اشتداد الأزمة النقدية في القرن 19 طرح فكرة الإصلاح بشدة، فقام ملوك المغرب بعدة محاولات إصلاحية، وارتكزوا في إجراءاتها على خبرة الأطر المتوفرة آنذاك ولاسيما فئة التجار الذين كانت لهم خبرة واسعة بمخالطة الأجناس والمعرفة بشؤون المال.⁸ ففي سنة 1867م، تطلع السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان إلى الاستفادة من تجربة التجار في الإصلاح النقدي الجديد، يستفاد ذلك من رسالة الوزير الطيب بليمي إلى الأمين محمد بنيس، والمؤرخة ب 9 صفر 1284 الذي يستشير التجار: "ويسألهم عن عمل النصارى في أمر الرجال في روجانه بينهم وبين غيرهم، ويسألوا عن عمل باشا مصر كيف يباع ويشترى مبيين ذلك بيانا شافيا".⁹

ونظرا لتولي عدد منهم مهمة الأمانة¹⁰، فقد ساهم تجار المدينة في صياغة القانون الجديد لتسيير أمانة المراسي المغربية الذي يشمل 28 فصلا ويرجع إلى عهد السلطان محمد الرابع¹¹، كما كان التجار على رأس البعثة التي أرسلها الحسن الأول في نطاق إصلاحاته للشواطئ المغربية.¹²

وفي سياق الإصلاحات التي قام بها المخزن قصد تنظيم البريد، فقد احتل تجار فاس موقع المسؤولية في عدد من مكاتب البريد بكل من فاس وتطوان وغيرها. ومن أمثلة ذلك تكليف الحاج عبد الكريم بن جلون بمكتب البريد بفاس وتخويله صلاحيات عديدة.¹³ كما كان للتجار الفاسيين حضور وازن في المعارض الأجنبية مثل حضور التاجر الحاج محمد بن العربي القباج الفاسي في معرض باريس الثاني سنة 1867.¹⁴

ومن الجدير بالملاحظة أن فئة كبيرة من التجار استطاعت خلال النصف الثاني من القرن 19 أن تراكم رساميل مهمة، وأن تحرز على ملكيات عقارية ممتدة، وأن تكتسب خبرة بشؤون المال والتجارة ومعرفة متقدمة بأحوال المجتمعات الأوربية الحديثة وذلك بفضل تعاملها مع التجار والشركات الأوربية وإقامة بعض أفرادها مددا طويلة في أوروبا ودخول كتلة مهمة منها في الحماية القنصلية.¹⁵

وبحكم مراكزها الاقتصادية والمالية، كان موقف فئة التجار مؤيدا لسياسة التحديثات، مؤيدا لحرية التجارة والتصنيع والتكنولوجيا.¹⁶

غير أنه لا بد من الإشارة أن هناك عددا من العلماء الذين كانت لهم مواقف لينة من هذه التحديثات وأبدوا إعجابهم بالحدثة الأوربية، ومن جملتهم نذكر إدريس بن محمد بن إدريس العمراوي¹⁷ الذي شارك في سفارية إلى باريس سنة 1860م في عهد نابوليون الثالث، وقد وصف هذا الفقيه المخزني وصفا فيه كثير من الإعجاب بالاستحسان بعض مقومات الحدثة الفرنسية على النحو الذي تجلت له في عدد من المظاهر الاجتماعية والعمرانية والسياسية والتكنولوجية.

وإذا كان هذا العالم قد أشاد مرارا بقدرة الإنسان الفرنسي على السيطرة على بيئته الطبيعية سيطرة مذهلة بحيث لا تكاد تجد فيها مكانا لم تلمسه يده أوأالته بالحفر والإصلاح والغراسة والبناء، فإننا نجده يصف "بابور البر" و "بابور البحر" وصفا دقيقا ينم عن إعجاب يصل في بعض الأحيان إلى حد الذهول¹⁸.

2.1. الجناح الرافض: لم يكن هذا الجناح يرى في إدخال تحديثات على النمط الأوربي فائدة تذكر، سواء تعلق الأمر بالتحديثات التكنولوجية العسكرية أو المدنية باعتبار ذلك علامة على تفكك مدمر للبنيات المجتمعية التقليدية السائدة التي كان هذا الجناح يستفيد منها، وكان يربط دوما بين تلك التحديثات وتكاثر الأجانب بالمغرب تكاثرا مؤذنا بتكاثر المحميين اليهود والمسلمين وتجاسرهم على الحكام، وتراجع مداخليل المخزن ومداخليل موظفيه.

ومن أبرز ممثلي هذا الجناح المحافظ نجد وزير المالية محمد بنيس والحاجب موسى بن أحمد والجيلالي بن أحمد رئيس عبيد البخاري المكلف بالسفارات بالإضافة إلى النائب السلطاني بطنجة محمد الخطيب¹⁹.

بالنسبة للعلماء، لم يكن هؤلاء في مغرب ما قبل الحماية يشكلون طائفة متجانسة المصالح من الناحية السوسيولوجية، مستقلة بذاتها منظمة تنظيما ترانبيا على نحو ما كان عليه أرباب الحنط المختلفة. فلم تكن وظيفتها الدينية تنطبق مع مراكز أفرادها في جهاز الإنتاج المادي والدولة. فالثابت أن فئة من العلماء تعاطت للتجارة ووظفت رؤوس أموالها في العقار مثلها مثل التجار، وهناك من ارتبط وظيفيا بجهاز الدولة، ومنهم من ارتبط بالتدريس والإفتاء، وبحكم اختلاف مصالحهم الاقتصادية والإدارية، اختلفت مواقفهم من الضغط الأوربي والحدثة بشكل عام، وتأرجحت مواقفهم بين الانغلاق والمحافظة ورفض التحديث من جهة والانفتاح والإعجاب من جهة ثانية²⁰.

ومن جملة الرافضين نجد الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني²¹، فقد ذكر أن من جملة أسباب انحطاط الأمة الإسلامية في كل صقع "إهمال من نبغ فيهم كاتبا أو شاعرا أو مشيرا أو صانعا يحسن صنعة التجبيص أو البناء أو الأواني أو الثياب"، ولا يشير الكتاني إلى وجوب تعلم صناعة أوربا الحديثة أو إتقان تكنولوجيتها، إنه لا يتحدث عن الصناعة بل عن الصنعة الموروثة عن الأجداد التي جعل من إتقانها شرطا من شروط نهضة الأمة²².

وعندما أرست السفينة الأوربية بالشيخ الذي كان قاصدا الحج بمرسليا، دفعته حميته الوطنية إلى أن يطلب من مضيفيه السماح له بزيارة مصنع السكر، وهي السلعة التي كانت تستنزف أموال المغاربة نظرا لإقبالهم على استهلاكها إلى جانب الشاي. وبدا الشيخ مهتما بالشروح المقدمة له، وفي مصر حل الكتاني ضيفا على الخديوي الذي آواه بقصره إجلالا له، وفي ذلك القصر اكتشف الشيخ آلة كتابة حديثة أعجب بجمال حروفها ودقتها فحملها معه إلى المغرب قصد استخدامها. والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: هل كان الشيخ سيقبل على اقتناء تلك الآلة لو كان قد تعرف عليها في "دار الكفر" بمرسليا لا في "دار الإسلام" بمصر والقاهرة؟

وقف بعض من التجار موقفا معاديا من الإصلاحات، ومن جملة هؤلاء التاجر عبد الواحد التازي، وكيل التجار المغاربة بمصر الذي بعث للسلطان الحسن الأول برسالة محذرا إياه من الدعوات الإصلاحية الأوربية نظرا لكونها وسيلة للتغلغل الأجنبي. فقد اعتبر هذا التاجر أن احتلال الفرنسيين للجزائر ليس إلا قاعدة ترابية للانطلاق نحو غزو المغرب²³.

كما بين أن السكك الحديدية هي وسيلة الأوربيين لغزو أراضي جديدة واستيطانها، يشير التازي: "ولا يخفى على سيدنا بأن الكفار لما يملكون ذراعا يمدون فيه سكة الحديد ليملونه مثلما فعلوا بتونس"²⁴.

والجدير بالذكر أن موقف هذا التاجر كان قريبا من مواقف بعض العلماء ورجال المخزن الذين استخلصوا من تجربة تونس وغيرها من الأقطار الإسلامية أن التحديث الذي يطالب به الأوربيون ليس إلا وسيلة لتدنيس المغرب والإيقاع به²⁵.

ومن ثم كان موقفه موافقا لمواقف كثير من العلماء المغاربة كما سبق وأسلمنا²⁶. لقد كان هذا التاجر مقيما بمصر، وكان موظفا مخزنيا، ويتخذ كتاب الفقيه التسولي إطارا مرجعيا.

2. رد فعل النخب من الانفتاح على الغرب

1.2. التنافر والاصطدام في علاقة النخبة الدينية بالنخبة التجارية: نظرا لكونهم ضمير الأمة الإسلامية والمعبر عن رأي الجماعة الإسلامية، فقد كان لزاما على العلماء وأعضاء النخبة الدينية التصدي لكل ما من شأنه أن يهدد ثوابت المجتمع المغربي التقليدية. ولما كان هذا المجتمع في غضون القرن التاسع عشر مهدد الأركان، مفكك الأوصال، متعدد الأزمات، فقد رأى العلماء أن المشكل يتمثل في الإخلال بالأسس الدينية، على اعتبار أن الإسلام هو إيديولوجية الدولة الجامعة لكل جوانب الحياة، فالإسلام هو خطة سياسية، اقتصادية، اجتماعية وصالح الدولة وإنقاذها من الهاوية التي كانت تسير نحوها بخطى ثابتة رهين بعودتها إلى تطبيق الشريعة الإسلامية.

وبعيدا عن مهمة حفظ الشريعة الإسلامية والحرص على تطبيقها، فقد هاجم الفقهاء الامتيازات العديدة التي كان يتمتع بها التجار، حيث أصبح هؤلاء "يتناولون" على مهمات كانت إلى عهد قريب من اختصاصات العلماء، لاسيما بعد اشتداد وطأة التدخل الأجنبي واستشارة المخزن للتجار في التطورات الجديدة. فاتهمهم بالكفر والمروق، ولم يدخروا جهدا في إهانتهم وتحميلهم مسؤولية ما وقع بالبلاد، فعارضوا امتيازاتهم²⁷، وعابوا عليهم احتماؤهم بالأجنبي. بل إن الفقيه مولاي أحمد العراقي رأى أن تجار مدينة فاس "جبلوا على الجبن، واستولى حب الدنيا على قلوبهم، واشتاقوا إلى معاشره الروم".

استنكر العلماء ظاهرة الحماية القنصلية التي انطلقت من مبدأ حماية التاجر الأوربي، ومن يتعلق به بالعمل، ثم انسحبت على من يتعلق به بالتعامل مع التجار المغاربة²⁸.

وبغض النظر عن الأضرار المادية التي ألحقها هاته الظاهرة بخزينة الدولة وهو ما كان يثير حنق السلطة المركزية، فإن العلماء نظروا إليها على أساس أنها مساهمة جادة في تسهيل مأمورية الأوربيين الطامعين في احتلال البلاد والقضاء على شخصيتها عن طريق محو عقيدتها، ونشر الأفكار والتقاليد الأوربية²⁹.

وقد بدأت تهمة مهادنة الأوربيين توجه إلى التجار عموما وتجار فاس على وجه الخصوص، منذ 1860م، حيث كان العراقي أول من اتهمهم بذلك صراحة حين قال "...ومشاورتنا للسفهاء من التجار الذين لم يباشروا الحرب ولا قاربوا ساحتها لكونهم جبلوا على الجبن وقد استولى حب الدنيا على قلوبهم واشتاقوا إلى معاشره الروم وأرضهم كما تعلن بذلك ألسنتهم لدى الخاص والعام"³⁰.

وتوالت بعد ذلك الصيحات الداعية إلى مقاطعة المحميين من التجار، بل إن من العلماء من كَفَرهم، كما ورد ذلك عن المشرفي صاحب كتاب الرسالة في أهل الباسبور الحثالة، جاء فيه:³¹

[وبعد فقد توجه سؤال لأهل العلم، حفظهم الله بحفظ أهل السنة، وفي حادثة حدثت في قرننا هذا في حدود السبعين والمائتين والألف، وهي دخول المسلمين تحت كلمة الكفر ويعبرون عنا بالحماية معتذرين بها عن تحصين أموالهم من ثقل المغارم مع أنهم يجعلون حظا وافرا لمن يحميهم بإذلال وطيب نفس، فهل يكون المحتمي بالحماية على هذه الحالة مسلما عاصيا، أو خرج عن دينه بالكلية، وللإمام أن يحكم فيه بالاجتهاد].

وينتهي المشرفي بالجواب عن ذلك بوجوب مقاطعة المحميين مقاطعة نهائية، لأنه يرى أنه السبيل الوحيد لإيقاف انتشار هذا الداء بين الآخرين، حيث إن رجال الحكم لم يقدموا على اتخاذ إجراءات ضد المحتمين بالأجانب، فإن هؤلاء الآخرين قد طفوا وعتوا مما شجع الآخرين على اقتفاء أثرهم ومساندتهم نتيجة إهمال السلطة.. وأضاف المشرفي، أن الشر قد استفحل وأخذ ينذر بكارثة، لأن الشك بدأ يسري إلى عقول العامة، حيث ينظرون إلى أصحاب الحماية وحالتهم فيتصورون أن دين الكفار أحسن من دينهم، [لأن هذا المنكر من أعظم المفاسد في الدين الذي يتعين فيه الزجر والتغليظ...]³².

من جانبه، لا يرى البلغيثي مامون، مبررا لاحتماؤ التجار بالأجنبي لصيانة أموالهم وحمايتهم حيث يقول: "وما صار أيضا، شعارا لكل أعيان التجار احتماؤهم -لحفظ دنياهم- بالكفار الفجار، بل صار بعضهم بالاحتماؤ المذكور يستطيل ويظلم، ويستضعف ولادة المسلمين، ولجانب الشريعة يحقر ويهضم، وكثير السؤال في حكم هذا الاحتماؤ، وهل يجوز؟ فأردت أن أذكر هنا على سبيل التقريب والاختصار في ذلك"³³.

وقد خطب أبو الحسن علال بن عبد الله الفاسي في هذا المضمار، وهاجم تجار فاس الذين [...] أصبحوا يتخذون دين الله هزواً ولعباً، ويميلون لأهل الشرك والظلال... يرضون بهم أولياء وأعوانا وجيرانا وأحباباً، ويعلنون باتخاذ حمايتهم ويجهرون بالانتقاء لمواليتهم³⁴. ومن أهم خطبه "إيقاظ السكارى المحتمين بالنصارى" و"الويل والثبور لمن احتى بالباسبور"³⁵.

أما جعفر الكتاني الفاسي المتوفى سنة 1323هـ/1905م، وتأليفه/الدواهي/المدهية للفرق/المحمية الذي يعتبر أكبر وأجمع تأليف هذا الباب، فقد أكد على أنه [...] إذا علمت هذا، فاحتجاج الموالين للعدو لجواز مواليتهم له: بظلم الولاة لهم، وتعديتهم عليهم باطل ويكفي في رده مصادمته للآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وكلام أئمة الملة الحنفية ودلالته على ضعف الإيمان، وقلة ألا يقل بترجيح عرض دنيوي محتقر على بهاء دين أخروي يدخر...³⁶.

وقد أورد الناصري حادثة مقتل أحد تجار فاس جراء احتمائه بالأجنبي "...وفي سنة اثنين وثمانين ومائتين وألف حدثت فتنة بفاس، وذلك أن الناس كانوا في صلاة الجمعة بمسجد القرويين وكان فيهم التاجر الأمجد أبو عبد الله حبيب بن هاشم بنجلون الفاسي، فلما سجد مع الناس شرخ بعض اللصوص رأسه بحجر كبير من أحجار التيمم التي تكون بالمسجد، ثم انحنى عليه بخنجر كان بيده فقطع به بطنه"³⁷. ولا يخفى ما لهذه الحادثة من تهديد لتجار المدينة المتعاملين مع الأوروبيين؟

2.2. ردود فعل النخبة الدينية من انفتاح كبار التجار على الغرب: لقد أثارت مسألة الاتجار مع الأوروبيين جدلاً كبيراً دفع بالكثير من العلماء إلى تناولها بالدراسة والتحليل لما أثارته من إشكالات عدة، سواء لدى العامة أو الخاصة، حيث ارتبطت معظم النوازل الفقهية بالجهة مصدر السلعة. وهكذا سنجد أن التبغ مثلاً لكون بعضه يرد من الجنوب، فقد وجد في بداية الأمر من يقول بجوازه، ولما توالى وروده من الغرب تشدد الفقهاء في منعه إلى أن قام المخزن بتسريح أمره، بيد أنه بقي مثار جدل بحيث مازال يعامل من التقبيح أكثر مما يحمل من الرفعة داخل المجتمع المغربي³⁸.

ونظراً لأهمية التجارة الخارجية، فقد وضع عدد من العلماء قواعد التبادل التجاري مع الأوروبيين ومن بينهم نجد العالم التسولي الذي ذكر بأسس المعاملات التجارية مع الغرب، هذه الأسس التي تعتبر أن السياسة التجارية وطريقة المبادلات لها ضلع كبير في تطوير العلاقات الدولية، وفي طبيعة العلاقة بين المسلمين وأوروبا. ويمكن أن نستنتج مما أورده التسولي، أن المبادلات التجارية مع غير المسلمين، يجب أن تقوم على شروط معينة، مما ينفي الاتهام الأوربي وغيره الذي يتحدث عن الرغبة في العزلة وعدم مخالطة الأجانب ولو بالتجارة³⁹.

وقد اتخذ العلماء موقفاً حاسماً من الامتيازات التي منحت للتجار الأوروبيين واعتبروها عنصراً أساسياً للإخلال بالتوازن الاقتصادي للبلاد في مرحلة أولى⁴⁰، ثم الأدهى من ذلك أنها أصبحت مسؤولة عن الإخلال بالتوازن العقائدي بالبلاد بين السلطة والسكان، حينما انسحب مفعولها على التجار المغاربة عن طريق الحماية.

أدانت فئة العلماء المعاملات التجارية مع أوروبا والتي أدت إلى تفاحش الحمایات القنصلية، كما أدانت طائفة التجار المتعاملين مع الأوروبيين وحللت أهمية علاقة هذه الفئة في فتح المجال أمام التسرب الأوربي وتوطيد الأطماع الأوربية. حيث اعتبر التاجر إلههم [قريب من الأوربي أو عينه لأن الغالب عليه أن النصارى يسألونه عن أحوال المسلمين، ولا يجد بدا من جوابهم]. و[مشاورتنا كانت للسفهاء من التجار الذين لم يباشروا الحرب ولا قاربوا ساحتها لكونهم جبلوا على الجبن، وقد استولى حب الدنيا على قلوبهم واشتاقوا إلى معاشررة الروم وأرضهم كما تعلن بذلك السنة العام والخاص]⁴¹.

ولأن الموقف من الاتجار مع الآخر لدى المغاربة كان مرتبطاً بمسألة السيادة، فإننا سنجد أنه كلما ارتبطت التجارة بالغرب، كلما تشدد الناس في العزوف عنها.

ومن بين المؤلفات في الموضوع تلك التي كان أساسها الرد على نوازل المتاجرة مع الخارج:

- كشف البيان عن مجلوب السودان للتمبكي.
- هداية من حار في أمر النصارى لماء العينين.
- الرسالة الوجيزة المحررة في أن التجار إلى أرض الحرب وبعث المال إليها ليس من فعل البررة، للإمام الرهوني.

- حكم صابون المشرق وشمع البوحي وصندوق النار وخياطة أهل الذمة لجعفر الكتاني.

ونظرا لكونهم صلة وصل بين المغرب وأوروبا، فقد هوجم التجار الفاسيون وغيرهم من قبل العلماء الذين اعتبروا انفتاحهم على الغرب والمتاجرة معه مصدر البلوى التي عمت البلاد والعباد.

ويرى البلغيثي أن ما يفعله التجار أيضا، السفر إلى أرض الحرب للتجارة، وهو أمر ممنوع لأنه يؤدي إلى مشاهدة منكر الكفار والتدلل لهم، والدخول تحت حكمهم، وقد شدد مالك الكراهية في التجارة في بلاد الحرب لجري حكم المشركين عليهم، وينبغي للإمام أن يمنع ذلك ويتشدد فيه، ويجعل الرجعة عليه، وعلى الحكم بالمنع والكراهية، فالتجارة إلى أرض الحرب من المحرمات⁴².

لم يكتف العلماء بمنع التجار من السفر إلى أرض "الحرب"، بل منعوا كذلك "وسق" السلع إلى بلاد الكفار. وقد شمل هذا المنع خاصة المواد الرئيسية كالقمح والتمر والخيول وغيرها. فقد رأى البلغيثي أن {...مما شاع الآن وقبل، وهو من المحرمات، شراء التمر الجيد والتغالي فيه وتوجيهه لبلاد الكفار من أهل الحرب لبيعه لهم في مواسمهم وغيرها بالثمن الغالي، وقد تقرر عند الفقهاء والأئمة الخلاف في بيع الطعام للكفار الحربيين في زمن الرخاء والهدنة، والمشهور هو مذهب ابن القاسم وهو المنع، ولو في الهدنة والرخاء....وشمل المنع بيع البقر ونحوها لهم، بما في ذلك من إغلائه على المسلمين وتقوية للكفار على كفرهم حتى بالنسبة للجلود والحديد والخيول ونحوه، وخاصة آلة الحرب....أو آلة سفروغيرها مما يتفوقون به في الحرب}⁴³.

هنا يطرح السؤال حول مبررات عدم التعامل مع الأجانب؟ قد نجد في كثير من النوازل الفقهية ما يوضح أن أسباب منع التصدير لأوروبا ومنع التجار المسلمين من التعامل معها، هو الخوف من تقوية العدو واستيلائه على البلاد نظرا لعدم تكافؤ ميزان القوة، سواء من حيث العدة أو العتاد. ففتاوي العلماء لم تعد تبحث عن الحلال والحرام بالمعنى الديني، وإنما السياسي والقانوني، فهؤلاء الأجانب أصبحوا يريدون النفاذ إلى النسيج الاجتماعي المغربي من خلال إقامة علاقات تجارية⁴⁴ تؤدي إلى إحداث أضرار مادية تتيح لهؤلاء المتطاعين استعمار البلاد، واتخاذ التجارة ذريعة لتدخلهم العسكري⁴⁵.

لقد كان الخوف من التجارة الخارجية مدعاة للخوف من تحالف التجار مع مصادر تمويلهم في أوروبا على احتلال البلاد وتدمير قوتها وخلخلة تنظيماتها. وفي هذا الإطار يمكن إدخال نصائح ابن عزوز للسلطان المندرجة في إقامة جيش حديث من بين ما يعتمد في تجهيزه، مصادرة أموال التجار. جاء في رسالة حول تجار فاس وكيف يمكن مصادرة أموالهم: {...وانظر إليهم بعين السخط والغضب، وقل لهم: افتخرتم باللباس وتدرج الكاس، وكثرة الأكل والنعاس، وشيدتم البنين، واتبعتم الشيطان...تجولون في أقطار الأرض لجمع الأموال...وما من مدينة في بلاد النصرى والمسلمين شرقا وغربا، إلا وأنتم تتجرون فيها، وبلغتم بلاد السودان وضيعتم الأعمار في طلب الدرهم والدينار}⁴⁶.

ولكن هذا الموقف، لم يكن رفضا من أجل ذاته، ولا رفضا ناتجا عن الجهل بحقائق الأمور، ولم يكن رفضا إيجابيا لأنه استطاع من جهة أن يلتصق بؤادر الأزمة ويترقبها ويتحسس مواضع الخطر والانفجار فيها، ويتعرض لأسبابها. ولأنه من جهة أخرى، لم يكن الرفض الناقص المتفجع، بل عرض البديل للخروج من الأزمة⁴⁷.

ويرى نورمان سيكار أن موقف العلماء يمكن أن يبرر كذلك بتعارض مصالحهم مع فئة كبار تجار فاس، "فمصالح التجار ووجهة نظر الدين غالبا ما كانت بعيدة في فاس عن التطابق، وقد انطبق هذا أكثر على التجارة مع أوروبا"⁴⁸، ويضيف أنه، حتى عندما كان لبعض العلماء أقرباء من التجار، انحدروا من الوسط المجتمعي نفسه، فقد كان يمكن أن تنشأ مصالح ووجهات نظر متباينة. وإذا أخذنا الإطار الديني للمجتمع بعين الاعتبار، فقد كان لهذا بعض الأثر، على الأقل في توجيه نمو الرأسمالية بطرق كانت تختلف عما كان سيكون عليه الأمر في غياب مقلد هذا القانون الوضعي الذي هو فطريا فوق المجتمع، والذي لا يمكن أن تهمله أي جماعة ذات مصلحة، مثل الجماعة التجارية⁴⁹.

وقد سبقت الإشارة إلى أن التجار في فاس كانوا ينفردون تقريبا بوظيفة الأمناء دون العلماء، بخلاف ما كان عليه الأمر في باقي المدن المغربية. مما جر عليهم نقمة العلماء. غير أن بؤادر الاندماج بين "النخبين الاقتصادية والدينية"، حدثت فيما بعد، مع

الدخول المتزايد إلى إدارة الحكومة والتجارة، ليس للعلماء أنفسهم، ولكن لأفراد من العائلات التي كانت معروفة سابقا بعلمها أساسا، وبتوافر عامل آخر مهم وهو المصاهرة واسعة النطاق⁵⁰.

خلاصة: إذا كان الكاتب المخزني قد اكتشف الحداثة الأوربية منذ إرهاباتها الأولى في القرن السادس عشر، واقتضى آثار تطورها خلال القرون التالية، واقفا منها مواقف فكرية متباينة، فإن الحداثة الفكرية، وهي أهم مكون لتجربة الحداثة الغربية كلها إن لم تكن الأساس المكين الذي قامت عليه هذه التجربة، ظلت تمثل اللامفكر فيه خلال هذه المرحلة الطويلة. فرغم اكتشاف الكاتب المخزني للمطبعة مبكرا، فإنه لم يسع إلى الاطلاع على ثمراتها من الكتب العلمية والفلسفية والأدبية والفنية الأوربية، ولا على أعلام الفكر الذين عاصروه.

غير أن النخب التقليدية في البلاد أحست بـ"صدمة" الحداثة بعد الهزتين العنيفتين في إيسلي و تطوان، فكان لا بد من إعادة الهيكلة وتجريب وصفة للإصلاح والبحث عن الأسباب والمسببات التي جعلت الآخر الذي ينتمي إلى دار الحرب بهذه القوة والهيمنة. وإذا كانت الدعوات الإصلاحية خجولة في مرحلتها الأولى، فإنها سرعان ما تعالت بعد تنامي الضغوط الاقتصادية والامبريالية، فوجد المخزن نفسه في وضع يقضي بإعادة ترتيب البيت الداخلي، متخذًا جملة من الإصلاحات، التي كانت في جانب كبير منها بإيعاز من الدول الأجنبية.

وقد بدا جليا أن رياح التغيير بدأت تهب، وأن المدركات الجماعية التي حرص المغاربة على الاحتفاظ بها بدأت تنهار فتصدي العلماء لكل ما من شأنه أن يمس امتيازاتهم، فعارض عدد منهم هذه الإصلاحات، وشككوا في جدواها ووقفوا منها موقفا معاديا، وامتد موقفهم هذا ليشمل تلك الطائفة التي كانت تمثل الشكل الجيني للبرجوازية المغربية، وشنوا عليها حملة شعواء، بل إن منهم من نعتهم بالكفر والمروق، لا لشيء سوى لتوافق مصالحهم مع هذه الإصلاحات فكان لا بد من تشجيعها، وهو الأمر الذي كانت له انعكاسات خطيرة على وضعية العلماء.

لقد خبر المغرب تداعيات التجاذب بين فئتين متناقضتي المصالح، أو ما قد يعتبره البعض تعارضاً بين الدين والسياسة والذي ربما، ضيع على المغرب فرصة تكوين طبقة برجوازية قادرة على التحديث ونقل البلاد من وضعيتها القروسطوية ووضعها على سكة التطور والتقدم والحداثة، فأصبحت المدركات الجماعية التي حرص العلماء على حمايتها، خوفا من فقدانهم لامتيازاتهم، ومن يدري، قد يكون ذلك بسبب الحمية الدينية، مطية لاستمرار تفاوتات عميقة ضيعت على المجتمع المغربي فرصة اللقاء بهذا الأجنبي "الكافر" الذي تفوق في حضارته علينا بسنوات عديدة.

لائحة المراجع

1. ابن زيدان: إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس (الرباط: المطبعة الوطنية، 1933).
2. إدريس بن محمد بن إدريس: تحفة الملك العزيز بمملكة باريز (الرباط: ب.ن، ب.ت، طبعة حجرية)، الخزانة الملكية 1232.
3. محمد الباقر الكتاني (تقديم/محمد بن عبد الكريم الخطابي): محمد الكتاني، الشيخ الشهيد، (ب.م: مطبعة الفجر، 1962).
4. بوجندار محمد بن مصطفى (دراسة وتحقيق: عبد الكريم كريم): الاغتياب بتراجم أعلام الرباط (الرباط: مطابع الأطلس، 1987).
5. أحمد البلغيثي بن مامون: بيان الخسارة في بضاعة من يحط من مقام التجارة، مخطوط.خ.ع.رقم.1233.
6. عبد السلام الحيمر: النخبة المغربية وإشكالية الحداثة (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2001).
7. عبد السلام حيمر: المغرب: الإسلام والحداثة (الدار البيضاء: منشورات الزمن، سلسلة شرفات 15، 2005).
8. محمد داود (مراجعة وتنقيح: حسناء داود): تاريخ تطوان (قرطبة: المسارة، 2008).
9. محمد المنوني: مظاهر يقظة المغرب الحديث (الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، 1973، ط1).
10. التوزاني نعيمة: الأمناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي الحسن، 1311.1290، 1894.1873: مساهمة في دراسة النظام المالي بالمغرب (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 2، 1979).
11. منير روكي: تجار فاس بين المخزن والعلماء (الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، ط1، 2017).

12. عبد الوهاب ابن منصور: مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب، منذ نشأتها إلى مؤتمر مدريد سنة 1880 (الرباط: المطبعة الملكية، ط2، 1985).
13. أكينج العربي: انفتاح المغرب على السوق الدولية في القرن التاسع عشر وانعكاساته على تطور البنيات الاقتصادية، الاجتماعية، والسياسية للبادية المغربية (فاس: أنفو برانت، ط1، 2005).
14. إدريس كرم: العلاقات الاجتماعية من خلال النوازل الفقهية بالمغرب (ب.م: دن، 2005، ط1).
15. أمحمد بن عبود، "حرب تطوان وعواقبها"، ضمن: تطوان قبل الحماية: 1860-1912، أعمال الندوة المنعقدة بتطوان بين 12-14 نونبر 1992 (تطوان: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ب.ت، ب.ط).
16. نورمان سيكار، "البنى المجتمعية الاقتصادية ونشوء برجوازية حضرية في المغرب قبل الاستعمار"، مجلة كلية الآداب (الرباط: العدد 20، السنة 1995).
17. عكاشة برحاب، "التجارة في المغرب القرن التاسع عشر"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية (المحمدية: العدد 2-3، 1990).
18. عبد الهادي التازي: رسائل مخزنية على عهد السلطانين مولاي الحسن وابنه السلطان المولى عبد العزيز تتعلق بأمين الأمناء محمد مخا التازي وشقيقه عبد السلام 1875-1904. القسم الأول. (الرباط: نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي).
19. عمر أفا، "مشكلة النقود ومحاولات الإصلاح في المغرب القرن 19"، ضمن ندوة: الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19 (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات، 1983).
20. محمد المنوني، "نماذج من تفتح المغرب القرن 19 على معطيات نهضة أوربا والشرق الإسلامي"، ضمن ندوة: الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19 (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 7، 1983).
21. بناني سميرس، لطيفة، "جوانب من مواقف علماء المغرب في القرن التاسع عشر"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية (فاس: العدد 2، 1985).
22. J.L.Mieg : **Le Maroc et L'Europe(1830-1894)**(Paris : P.U.F ، 1962).
23. G.Lazarev ، « Aspect du capitalisme agraire au Maroc avant le protectorat » ، IN : **Problème agraire au Maghreb** (Paris : CNRS ، 1977).

* أستاذ باحث في التاريخ

- ¹ عبد السلام الحيمر: **النخبة المغربية وإشكالية الحداثة** (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2001، ب.ط)، ص 145.
- ² ميز جون لوي مبيج بين جناحين رئيسيين في جهاز المخزن فترة تولي السلطان محمد بن عبد الرحمان الحكم: - أحدهما محافظ تقليدي معادي للانفتاح على أوروبا رافض لاستلهاام حداثتها في سبيل تحديث المغرب وتجديد كيانه. ولم يكن هذا الجناح يرى في إدخال تحديثات على النمط الأوروبي سواء تعلق الأمر بالتحديثات التكنولوجية العسكرية أو المدنية، إلا عامل تفكيك مدمر للبنيات المجتمعية التقليدية السائدة التي يستفيد منها. وكان يربط دوما بين تلك التحديثات وتكاثر الأجانب بالمغرب، تكاثرا مؤذنا بتكاثر المحميين، اليهود والمسلمين، وتجاسرهم على القضاة والحكام وتراجع مداخيل المخزن ومعه مداخيل موظفيه. - ثانيهما ليبرالي متجدد متفتح على أوروبا متحمس لاستلهاام حداثتها التكنولوجية وحسن تنظيماتها العسكرية والإدارية، ولا يرى غضاضة في الاستعانة بالنصارى والتعلم منهم والدراسة في مدارسهم وكلياتهم ومعاهدهم.
- ³ للحدث عن ثنائية المخزن والتجار الفاسيين في مغرب ما قبل الاستعمار، يقترح كريستوفري لازاريف في بحثه القيم حول مظاهر الرأسمالية الزراعية بمغرب ما قبل الاستعمار تتبع المسلسل الذي أدى، خلال القرن التاسع عشر إلى تشكيل ملكيات فلاحية، والذي كان نتيجة التقاء مصالح فئتين اجتماعيتين: كانت الأولى منها "تتكون من الطبقة المسيرة، التي تملك زمام السلطة المركزية في المجتمع المغربي، وكانت تشكل حول السلطان مايسمى بالمخزن"، أما الفئة الثانية، فقد كانت "تشكل من البرجوازية التجارية الكبرى"، برجوازية أهل فاس بالخصوص، والتي استعادت ظهورها في الحياة الاقتصادية والسياسية في نفس الفترة التي كان فيها المغرب يفتح على التجارة الأوروبية.
- Problème agraire au Maghreb (Paris : : IN ، « Aspect du capitalisme agraire au Maroc avant le protectorat » ، Lazarev . G 60.- p 59 ، 197) ، CNRS
- ⁴ بدأت رياح التغيير تهب على المغرب بعد انفتاحه الاقتصادي والسياسي على أوروبا، حيث طرأ تغيير عميق على العلاقات بين المخزن والحواضر المغربية، طيلة القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. فأخذ المخزن، تدريجيا، يتحالف مع برجوازية المدن وبرجوازية أهل فاس بشكل خاص. كما غير من قاعدته الاقتصادية، حيث مزج مصالحه مع مصالح هذه البرجوازية، هذا في الوقت الذي كان فيه المغرب يمر بتغيير جوهري في علاقته مع أوروبا. وهو تغيير كانت له مضاعفات محلية خطيرة، فهزيمة المغرب في حربه ضد إسبانيا والتعويضات المرهقة التي أرغم المغرب على دفعها، جعلته في حاجة إلى موظفين يتوفرون على الخبرة المطلوبة لتسيير شؤون الدولة المالية، والتي أصبحت أكثر تعقيدا خصوصا فيما يخص الضرائب الجمركية. وهو الأمر الذي لم يكن بمقدور العنصر القبلي توفيره، ولا غيره من العناصر الأخرى التي كان المخزن يعتمد عليها حتى ذلك الحين. فاضطر السلطان إلى الالتفاف إلى أولئك الذين يستطيعون وحدهم القيام بذلك، وهم "التجار الحضريون".
- انظر: امحمد بن عبود، "حرب تطوان وعواقبها"، ضمن: تطوان قبل الحماية: 1860-1912، أعمال الندوة المنعقدة بتطوان بين 12-14 (تطوان: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، نونبر 1992)، صص 83-109. أيضا: نورمان سيكار، "البنى المجتمعية الاقتصادية ونشوء برجوازية حضرية في المغرب قبل الاستعمار"، مجلة كلية الآداب (الرباط: العدد 20، السنة 1995)، ص 172.
- ⁵ داود محمد (مراجعة وتنقيح: حسناء داود): تاريخ تطوان ج.5. (قرطبة: المسارة، 2008)، ص 103.
- ⁶ عكاشة برحاب: "التجارة في مغرب القرن التاسع عشر"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية (المحمدية: عدد 2-3، 1990)، ص 45.
- ⁷ عبد الهادي التازي: رسائل مخزنية عل عهد السلطانين مولاي الحسن وابنه السلطان المولى عبد العزيز تتعلق بأمين الأمناء محمد مخا التازي وشقيقه عبد السلام 1875-1904. القسم الأول. (الرباط: نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي، ب.ت، ب.ط)، ص 40.
- ⁸ عمر أفا، "مشكلة النقود ومحاولات الإصلاح في مغرب القرن 19"، ضمن ندوة: الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19 (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات، 1983)، ص 85.
- ⁹ عمر أفا، "مشكلة النقود..."، مرجع سابق، ص 85.
- ¹⁰ يستشف من مجموعة من المصادر التاريخية أن آل التازي كانوا من المتخصصين بأمانة الأمناء منذ إنشائها، فعندما توفي محمد التازي سنة 1890، عين السلطان مولاي الحسن أخاه عبد السلام خلفا له، وكان أيضا من أمهر التجار الذين خاضوا في البيع والشراء مع التجار الأوربيين، وكان له سابق اشتغال في أمانة بعض المراسي قبل أن يعين أمينا للأمناء، وكان من المساعدين الأقربين للسلطان مولاي الحسن وللصدر الأعظم باحماد.
- يقول صاحب الإنحاف: "عبد السلام بن محمد التازي، أمين الأمناء، وكان أول أمره ممن يتعاطى للتجارة بأوروبا، ثم ببلده، كان من المحظوظين عند السلطان مولاي الحسن لسابق معرفة بينهما، إذ كان أمينا بالصورة والسلطان لا زال مستخلفا من أبيه. انظر: ابن زيدان: إنحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ج.5. (الرباط: المطبعة الوطنية، 1933)، ص 363.

- ¹¹ انظر نص القانون عن: محمد المنوني: **مظاهر يقظة المغرب الحديث** ج.1. (الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، مطبعة الأمنية 1973، ط1)، صص 306-315.
- ¹² محمد المنوني: **مظاهر يقظة....** مرجع سابق، ص 75.
- ¹³ محمد المنوني: **مظاهر يقظة....** مرجع سابق، ص 91.
- ¹⁴ التوزاني نعيمة: **الأمناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي الحسن، 1311.1290، 1894.1873**: مساهمة في دراسة النظام المالي بالمغرب (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 2، 1979)، ص 28.
- ¹⁵ منير روك: **تجار فاس بين المخزن والعلماء (الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، 2017، ط1)**، ص 86 وما بعدها.
- ¹⁶ راجع: عبد السلام حيمر: **المغرب: الإسلام والحداثة (الدار البيضاء: منشورات الزمن، سلسلة شرفات 15، 2005)**، صص 114-115.
- ¹⁷ يقول ابن إدريس العمراوي مدركا أحد مظاهر التقدم الأوروبي: "وقد أخبرنا رئيس المحل أنهم في أربع دقائق يكتبون أخبار كثير من الأقاليم من بر العجم واسطنبول والهند والشينة ومصر وتونس والجزائر والمركان والنجليز وغير ذلك كأنهم حاضرون فيها..."، ثم يعلق ابن إدريس قائلا: "وهذه الآلة مما يذهل ذهن العاقل ويستريب فيها السامع والناقل. وكلما أمنت النظر فيها لم أجد عبارة تشتمل على حقيقتها وتستوفيها. على أن كثيرا ممن ينظر إليها لا يعرف كيفية الدلالة عليها، بل ويحسها إلا من طريق السخرات. وقد كان معنا بعض المغفلين فلما رأوا، واستعظم باطن أمره ومرآه سألناه عما فهم منه، واستخبرناه بأي عبارة يعبر عن، فقال لنا انه مثل خبر الأعراب الذين يخطون في الرمل ويضربون الفال في قرعة الأنبياء ويعبرون عما في قلبه من الإنباء، كلا بل هو من الأمور المذهلة، والأشياء المشككة، والأدوار المعظمة قد قربوا بها البعيد وهونوا الخطيب الشديد..."
- إدريس بن محمد بن إدريس: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز (الرباط: ب.ن. ب.ت، طبعة حجرية)**، الخزانة الملكية 1232.
- ¹⁸ بعد أن وصف العمراوي دار الطباعة، علق بإعجاب على مشاهدتها منها طالبا من السلطان أن يستحدث المطبعة في المغرب قائلا: "وهذه الآلة التي اتخذوها للطبع في كل الأمور عامة النفع معينة على تكثير الكتب والعلوم: وأثرها في ذلك واضح معلوم، وقد اتخذوها في جميع بلاد الإسلام واغتبط بها مشاهير العلماء الأعلام. ويكفيك شرفها وحسن موقعها رخص الكتب التي تطبع بها..." إلى أن يقول موجها دعوته إلى السلطان مولاي محمد بن عبد الرحمان: "ونطلب الله بوجود مولانا أمير المؤمنين أن يكمل محاسن مغربنا بمثل هذه المطبعة ويجعل في ميزان حسناته هذه المنفعة..."
- إدريس بن محمد بن إدريس: **تحفة الملك العزيز....** مرجع سابق،
- ¹⁹ عبد السلام الحيمر: **النخبة المغربية وإشكالية الحداثة**، مرجع سابق، صص 146-147.
- ²⁰ عبد السلام حيمر: **المغرب: الإسلام والحداثة**، مرجع سابق، صص 114-115.
- ²¹ هو محمد بن عبد الكبير الكتاني الحسني الإدريسي والمشهور بأبي الفيض الكتاني، ولد بمدينة فاس منتصف شهر ربيع الأول 1290هـ/ 1873م. وربي في حجر والده العلامة عبد الكبير الكتاني الملقب بـ "جبل السنة" ووالدته فضيلة بنت إدريس الكتانية، دخل الكتاب لتعلم القرآن واستطاع حفظه وهو صغير، حيث ساعده وسطه العلمي في اكتساب المعارف الضرورية والتمكن من بعض الأوراد الكتانية التي علمها إياه والده. وسرعان ما انخرط في سلك طلبة العلم بجامعة القرويين وغيرها من المدارس والزوايا الأخرى. ظهرت عليه علامات النبوغ مبكرا حيث تجمع المصادر على أنه أخذ العلوم الشرعية من فقه وحديث وبيان ومنطق وغيرها، الأمر الذي مكّنه من ممارسة مهمة التدريس وهو لا يزال يافعا.
- محمد عبد العلي الكتاني، مصدر سابق، صص 74-75.
- ²² محمد الباقر الكتاني (تقديم: محمد بن عبد الكريم الخطابي): **محمد الكتاني، الشيخ الشهيد (ب.م: مطبعة الفجر، 1962، ب.ط)**.
- ²³ محمد المنوني، "نماذج من تفتح مغرب القرن 19 على معطيات نهضة أوربا والشرق الإسلامي"، ضمن ندوة: **الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19** (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 7، 1983)، ص 202.
- ²⁴ محمد المنوني، "نماذج من تفتح..."، مرجع سابق، ص 203.
- ²⁵ الناصري: **الاستقصاء....** ج.9، مرجع سابق، ص 162.
- ²⁶ يقول أحمد بن خالد الناصري: [...] وتكلم الفرنسيون مع السلطان الحسن الأول في شأن بابور البر والتلغراف وإجرائها بالمغرب كما هما بسائر المعمور، وزعم أن في ذلك نفعا كبيرا للمسلمين والنصارى، وهو والله عين الضرر، وإنما النصارى أجربوا سائر البلاد فأرادوا أن يجربوا هذا القطر السعيد الذي طهره الله من دنسهم، نسأله سبحانه أن يكبت كيدهم ويحفظ المسلمين من شرهم...]. الناصري: **الاستقصاء....** ج.9، مرجع سابق، ص 162.
- ²⁷ أن هاته الامتيازات التي خص بها السلطان التجار الفاسيين مثل غيرهم من تجار السلطان، قد ساهم في رقيهم الاجتماعي وغناهم المادي. حيث استطاعوا مراكمة ثروات ضخمة، وخير دليل على ذلك الثروة الهائلة التي تمكن من جمعها محمد بنيس لدرجة جعلته يقوم بتقديم سلفات هامة لتجار آخرين كما تدل على ذلك بعض التقايد المخزنية.
- حول ذلك انظر: قوائم حسابية تتعلق بتجارة محمد بن محمد بن المدني بنيس (ما بين 1309-13016)، كناش الخزنة الحسنية رقم 856.

²⁸ ارتدى عدد مهم من تجار فاس في أحضان الحماية القنصلية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بالرغم من الامتيازات الهائلة التي كانوا يحصلون عليها في كنف المخزن. فقد ساهمت المعاهدات التجارية التي وقعها المغرب مع عدد من الدول الأوروبية في انتشار ظاهرة الحماية القنصلية وسط المجتمع المغربي حتى صارت تشكل عبئا كبيرا جثم على صدر الدولة المغربية، وساهم في جميع أنواع البلاء الذي عانت منه البلاد على امتداد النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

ومما لا مراء فيه، أن اليهود كانوا من العناصر السبابة التي استطلت بمظلة الحماية القنصلية، ثم سرعان ما تبعهم تجار مدينة فاس الذين استقروا منذ أمد ليس بالقصير بعدد من المدن الأوروبية كمنشستر وليون وجنوة وجبل طارق وغيرها. بل الأدهى من ذلك أن هؤلاء التجار سرعان ما التحق بهم أقرباؤهم وذوهم وجميع السماسرة المتعاملين معهم حتى صارت الحماية القنصلية متاحة لكل من يملك مالا لشرائها، فاتسع مجالها وضم أعدادا غفيرة من التجار وباقي الموسرين بالمدينة.

نورمان سيكار: مرجع سابق، ص 173؛ أكنينج العربي: انفتاح المغرب على السوق الدولية في القرن التاسع عشر وانعكاساته على تطور البنيات الاقتصادية والاجتماعية، والسياسية للبادية المغربية (فاس: أنفو برانت، 2005، ط1)، ص 147؛ عبد الوهاب ابن منصور: مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب، منذ نشأتها إلى مؤتمر مدريد سنة 1880 (الرباط: المطبعة الملكية، 1985، ط2)، صص 9-17.

²⁹ بناني سمير سلطيفة، "جوانب من مواقف علماء المغرب في القرن التاسع عشر"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية (فاس: العدد 2، 1985)، ص 221.

³⁰ بناني سمير سلطيفة، "جوانب من مواقف..."، مرجع سابق، ص 200.

³¹ محمد المنوني، ج. 1، مرجع سابق، ص 256.

³² بناني سمير سلطيفة، "جوانب من مواقف..."، مرجع سابق، ص 222.

³³ محمد المنوني ج. 2، مرجع سابق، ص 395.

³⁴ بناني سمير سلطيفة، "جوانب من مواقف..."، مرجع سابق، ص 223.

³⁵ محمد المنوني ج. 1، مرجع سابق، ص 257.

³⁶ محمد المنوني ج. 1، مرجع سابق، ص 260.

³⁷ الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، مصدر سابق، ج 9، ص 115.

³⁸ إدريس كرم: العلاقات الاجتماعية من خلال النوازل الفقهية بالمغرب (ب.م.ب.ن، 2005، ط1)، ص 210.

³⁹ بناني سمير سلطيفة، "جوانب من مواقف..."، مرجع سابق، ص 209.

⁴⁰ اقترنت بوادر التحول في عقلية التجار بتزايد الضغط الأوروبي من جهة، ولكثرة أسفارهم من جهة ثانية. فقد أورد الحجوي ما نصه: "...تجد طائفة من التجار بالأخص لها معرفة بالجغرافيا والسياسة والتاريخ وغيرها، بسبب رحلاتهم إلى الشرق وأوروبا وأمريكا وغيرها، وتقيدهم عقلا وقانونا في التفكير، بل تجد منزل كل تاجر منتدى من منتديات الأدب والسياسة، فتجد فيه جرائد ومجلات الشرق والغرب". الحجوي: مستقبل تجارة المغرب، مرجع سابق، ص 19.

كما كان سيدي العباس بن جعفر العمراني الجوطي يشتغل بالتجارة ويتقن الحساب ويعرف ظواهر الجغرافيا والتاريخ وله إلمام بأحوال العالم والشرق وأمريكا وإن لم يرحل ولكن خالط أهل الرحلات... ومما يدل على ذكائه أنه من نعمة أظافره اعتنى بحال بلده فكان لا يقع أدنى تغيير في الأسواق التجارية أو السكك المتعامل بها إلا قيده في دفتر خصصه لذلك، فما مضى زمن حتى صار دفتره مرجع فصل الدعاوي التي تتعلق بهذا النظام الاقتصادي مما يرجع للنفقات وترشيد المحاجر والمعاملات التجارية وما أشبه ذلك. يعلق مؤرخ الرباط بوجندار عن هاتيه التحولات بالقول: "ومع ذلك، ففي عهده تأكدت المواصلات بدول أوروبا وعظمت التجارة وكثرت الأموال بين الناس، فتأنقوا في المصانع والأبنية وبلغ أهل المغرب في الرفاهية مبلغا لم يبلغه أسلافه. وكنت تلك الأيام على ما فيها من كثرة الغزوات والحركات كلها خيرات وبركات لم يكدر صفوها إلا تسرب أقوام من التجار للمناصب السامية والمراتب العالية، فارتفعت منزلتهم ونفدت كلمتهم وصار بيدهم الحل والعقد والأخذ والرد، ولكنهم لسوء تصرفهم أوقعوا بالدولة الواقعة الأخيرة وأصابوها بالأزمة الخطيرة وزاد الطين بلة فتأحش المظالم والتعدييات من باقي الحكام".

بوجندار محمد بن مصطفى (دراسة وتحقيق: عبد الكريم كريم): الاغتياب بتراجم أعلام الرباط (الرباط: مطابع الأطلس، 1987)، ص 61.

⁴¹ بناني سمير سلطيفة، "جوانب من مواقف..."، مرجع سابق، ص 209.

⁴² أحمد البلغيثي بن مامون: بيان الخسارة في بضاعة من يحط من مقام التجارة (مخطوط. خ.ع. رقم: 1233) ص 102.

⁴³ أحمد البلغيثي بن مامون: مصدر سابق، صص 103-104.

⁴⁴ منير روكي، مرجع سابق، ص 136.

⁴⁵ إدريس كرم، مرجع سابق، ص 222.

⁴⁶ بناني سمير سلطيفة، "جوانب من مواقف..."، مرجع سابق، ص 221.

⁴⁷ بناني سمير سلطيفة، "جوانب من مواقف..."، مرجع سابق، ص 202.

⁴⁸ سيكار نورمان، مرجع سابق، ص 193.

⁴⁹ سيكار نورمان، مرجع سابق، ص 194.

⁵⁰ سيكار نورمان، مرجع سابق، ص 195.